الحرب مع البندقية

أصبحت البندقية منذ نهاية القرن الرابع عشر على درجة عظيمة من القوة في منطقة الشرق بما أنشأته من تجارة واسعة الآفاق ومستعمرات كثيرة ومحطات ومراكز هامة في بحار الشرق ومئات من السفن تنقل المتاجر والأمتعة من مختلف أنحاء العالم وتدر عليها الأرباح الوفيرة.

وبروز البندقية على هذا الوضع المتميز يعود إلى عدم وجود منافس يشكل خطراً عليها، فغريمتها جنوة ضعيفة وأصابها الوهن، وأشرفت على الاضمحلال، والإمبراطورية البيزنطية كانت تمر في مراحل شيخوختها في حين كانت الدولة العثمانية في بداية نشأتها السياسية، فنظرت إليها البندقية بلا اهتمام ولا مبالاة، بل نظرت إليها بشيء غير قليل من الازدراء والاستخفاف، فكان البنادقة ينظرون إلى السلطان أورخان على أنه رجل بربري جلف لا خطر له ولا اعتبار، ولكن تزايد نمو الدولة العثمانية واتساع فتوحاتها لاسيما بعد استيلائها على كليبولي التي تشرف على الدردنيل الذي يعد من أهم المنافذ التجارية بين الشرق والغرب، كل ذلك حمل جمهورية البندقية المتغطرسة على أن تغير نظرتها إلى هذه الدولة الإسلامية الفتية وتحسب لها ألف حساب.

ولم تكن خشية البنادقة وتخوفهم من الدولة العثمانية؛ لأنها دولة إسلامية، فلم يكن أمر الدين يعني هؤلاء التجار في قليل أو كثير إلا بقدر ما يتصل بتجارتهم التي كانوا يعدونها أساس رخاء البندقية وقوتها وعظمتها، بل لم يكونوا يحجمون عن أي عمل يحقق لهم شيئًا من هذا النفع، ولو كان في ذلك ضرر محقق بالنصرانية وأنها خيانة لها، وإنما كانت الخشية خشية البنادقة من

الدولة العثمانية أن تعرقل تجارتهم أو تقطع سبيل مواصلاتهم، فأخذوا يترددون إليها ويعقدون معها الاتفاقات والمعاهدات التي تضمن لهم سلامة تجارتهم[١].

ولكن هذه الاتفاقات كانت مصطنعة مؤقتة لا تحتمل الدوام والاستمرار؛ لأن طبيعة الأشياء كانت تأباها، فالدولة العثمانية لا تنفك تمد فتوحاتها في جميع الاتجاهات وتستولي على مواضع جديدة، وجمهورية البندقية من ناحيتها كانت شديد الحرص على الاحتفاظ بمركزها الممتاز في الشرق، بل على المزيد من توسيع تجارتها وتنمية ثروتها حتى تصبح (ملكة الذهب في العالم المسيحي كافة)[٢]، وتحقيقًا لهذا الهدف قوَّت البندقية مركزها وسلطانها في اليونان والمورة وبحر الأرخبيل، واستولت على مواقع استراتيجية جديدة فيها.

وجملة القول: أنها حاولت أن تحرم الأتراك من الاستيلاء على كل أرض في الإمبراطورية البيزنطية يلوح أنه من الممكن إنقاذها. وكان أكثر ما تخشاه البندقية هو أن تسقط القسطنطينية هذه المدينة الفريدة بموقعها وأهميتها خصوصا في ذلك العهد في يد العثمانيين بعد أن أحاطوا بها من كل جانب، فكان الصدام بين هاتين الدولتين الطموحتين أمرًا لا مناص منه.

وقد تحقق ذلك حينما اشتبكت السفن البندقية بالسفن العثمانية في الدردنيل ٨١٩هـ/ ١٤١٦م وسحقتها سحقًا، ولم يكن عجيبًا أن يحرز البنادقة مثل هذا النصر الساحق بسهولة؛ فقد كانوا سادة البحر وفرسانه منذ قرون بينما العثمانيون لم يكونوا قد أجادوا تحريك أيديهم بالمجاديف بعد، ولكن كان لهم مجال واسع في البر يعوضون فيه ما يصيبهم في البحر من خسائر.

---

(١) «الفاتح» د/ الرشيدي (ص٢٣٨).

(٢) شارك ديل «البندقية».

وكانت البندقية قد اشترت مدينة سالونيك ١٤٢٣م من الإمبراطور البيزنطي بخمسين ألف دوقة، وكان في عزم البندقية أن تجعل من هذه المدينة الساحلية الهامة (بندقية جديدة) في الشرق، ولكن تمض سبع سنوات حتى استولى عليها العثمانيون (٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م)، فتزايدت مخاوف جمهورية البندقية وتعاظمت، وإذا بهذه الدولة التجارية التي طالما عملت على إضعاف بيزنطة واقتطاع أجزائها وانتزاع الامتيازات منها وإهانة أباطرتها، إذا بها الآن تعمل بكل حمية وحماس لشدِّ أزرها وتقويتها وجعلها سدًا منيعًا ضد الأتراك، ونشطت نشاطًا كبيرًا في الجهود التي بذلتها بيزنطة للتوحيد بين الكنيستين الشرقية والغربية والاستعانة بقوات اللاتين في الغرب ضد العثمانيين اللذين اشتد خطرهم على القسطنطينية على نحو ما فصلنا ذلك من قبل.

وما إن تولى محمد الفاتح عرش السلطنة سنة (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) حتى شيدَّ على الضفة الأوربية من مضيق البوسفور قعلة روملي حصار، وأحكم سيطرته على هذا المضيق، وأمر بمنع أي سفينة من اجتيازه إلا بعد تفتيشها ودفع رسم المرور، ولم يكترث القبطان البندقي (أنتونيوزرو) لأمر الفاتح واقتحم المضيق بسفينة فاغرقتها المدافع المنصوبة على الضفتين، وكان ذلك نذيرًا بصراع عنيف بين الدولتين، وقد اشتركت السفن البندقية التي كانت راسية في القرن الذهبي حينما حاصر السلطان محمد الفاتح القسطنطينية في الدفاع عن هذه المدينة، كما اشترك نائب جمهورية البندقية في القسطنطينية وجميع أفراد الجالية البندقية فيها في هذا الدفاع أيضًا.

وحاولت البندقية مع البابا إنقاذ القسطنطينية، فأرسلت إليها مددًا من السفن المجهزة بالجند والعتاد، ولكنها جاءت بعد فوات الأوان، وجاء استيلاء العثمانيين

على القسطنطينية (ضربة قوية جدًا على البندقية) وعمَّ فيها البكاء والنحيب، ودعاء الدوق فرانسيسكو فوسكاري مجلس الشيوخ إلى إعلان الحرب فورًا على الدولة العثمانية، ولكن الشيوخ الموقرين آثروا التريث وتدبر الرأي ووزن المصالح التجارية العليا قبل الأخذ بهذا الرأي الخطير.

وأسفرت المناقشات في آخر الأمر عن الموافقة على تكليف بارتموليمبو مارشللو بالذهاب إلى أدرنة لمفاوضة السلطان الفاتح للحصول على أفضل الشروط التي تضمن المصالح الاقتصادية للجمهورية، والاعتذار للسلطان عن الموقف العدائية التي وقفها البنادقة في القسطنطينية واشتراكهم في الدفاع عنها، وقد نجح هذا المندوب في أداء مهمته، فعقد في ٨ إبريل ١٤٥٤م معاهدة سلام ومودة مع الدولة العثمانية ضمنت بها البندقية مصالحها التجارية في الشرق إلى حد كبير، كما منحت بعض إمتيازات إقتصادية جديدة.

ولكن هذا الاتفاق كان كسابقه من الاتفاقات، لم يكن في الواقع سوى هدنة مؤقتة أملتها الظروف القائمة، فقد كان هناك أكثر من ميدان تصطدم فيه هاتان الدولتان الطموحان اللتان تتغالبان على النفوذ والسلطان.

وقد زاد من قلق البندقية وتخوفها عناية السلطان الفاتح واهتمامه بتقوية أسطوله وتحصينه مضيق الدردنيل بعد الفوسفور إحكامًا في مراقبة السفن التي تنتقل بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط. وقد كانت البندقية تعتبر البحار وبخاصة بحار الشرق الميدان الذي يجب أن تنفرد بالسيادة فيه بغير منازع.

وفي سنة (٨٦٤هـ/ ١٤٦٠م) استولى السلطان الفاتح على شبه جزيرة المورة حيث كانت للبندقية مراكز هامة على الشاطئ وتجاور الخصمان بذلك وتواجها

وساد الشعور بأن الصدام بات وشيكًا أو واقع لا محالة، وبالطبع فإن البندقية أخذت تعد لذلك عدتها كما أخذت في نفس الوقت تمدُّ يدها بالمؤونة إلى أعداء الدولة العثمانية، مما زاد الموقف توترًا.

ونشبت الحرب بين الطرفين، وكانت حربًا طويلة قاسية عرفت في التاريخ بالحرب الكبرى، استمرت ستة عشر عامًا (١٤٦٣-١٤٧٩م). ويبدو أن السبب المباشر لهذه الحرب هو إلحاق ملكية البوسنة بالدولة العثمانية.

لكن السبب الحقيقي لهذه الحرب هو الفتح العثماني للقسطنطينية وإغلاق العثمانيين المضائق في وجه سفن البندقية، بالإضافة إلى حيازة العثمانيين على قوة عسكرية واقتصادية لا تسمح لأي دولة أن تنال منهم، وشكَّل سلوك العثمانيين الظافرين مصدرًا للقلق[١]، لقد قامت هذه الحرب من أجل المصالح التجارية.

بدأت الحرب بفتح العثمانيين حصن آرغوس[٢]، وتركزت الجولة الأُولى منها في شبه جزيرة المورة، وحقق العثمانيون انتصارات باهرة، ودخلوا مدينة أسبرطة[٣]، ونتيجة للمواجهات الفاشلة في المورة مع الدولة العثمانية . . رأت البندقية أن تستند على فكرة حرب العثمانيين من الشرق والغرب في الوقت نفسه، فراحت تبحث عن حلفاء في منطقة الأناضول الشرقي كما لم تهمل محالفاتها مع الغرب الأوربي.

---

(١) «البندقية جمهورية أرستقراطية» ديل، شارلز (ص١٣٨)، «تاريخ الدولة العثمانية» بيلماز أوزوتونا (جـ١ ـ ص٥٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) الرشيدي (ص١٧٩-ص٢٨٥).

كـان في بلاد الأناضـول آنذاك ثلاث إمارات من الأسـر التـركـمانيـة وهي إمارات القرمانيين وذي القدر التـابعتان للسيادة العثمانية، وإمـارة رمضان التابعة للماليك في مصر.

وهكذا تطلعت البنـدقيـة إلى إمارة الـقرمـان لتحـريضـها علـى مهـاجمـة العثـمانيين، خاصة وأن هذه الإمـارة قد أخذت على عـاتقها في السابق القـيام بمضايقتهم، إلا أنه منذ عام ١٤٦٦م خضعت الإمارة القـرمانية للسيطرة العثمانية بعـد الضربة التي تلقـتهـا على يد الفاتح الذي دخل قـونية وسـيطر على لارندا وأجلس ابنه الأمـير مصطـفى على عرش هذه الإمـارة، وبالتالي لم تعـد إمارة القرمانيين الحليف الذي يمكن أن يسدد ضربة للقوة العثمانية.

فاتجهت الأنظار نحو مصر، فمن الضـروري تحريض المماليك ضد العثمانيين بفعل الخـلافات الحدودية بين الطرفين، ولـكن مصر لا تقـدم على أي عمل مع المسيحيين ضـد الدولة الإسلامية، بفعل كون المماليـك مسلمين من جهة، ولأن الخلافات لـيست بالدرجة التي تجعلهـا تقدم على دخول حرب واسـعة النطاق، بالرغم من أن المـماليك كانوا غـير مـرتاحين من مـوقف الدولة العثـمانيـة من الإمارات الحـدودية بينهمـا؛ حيث كانوا يرون في تولي الأمـير مـصطفى عرش الإمارة القرمانية خطراً يتهددهم في بلاد الشام[1].

في الوقت الذي لم تظهر من جـانب السلطان العثماني أية بـوادر تشير إلى رغبته في اجتياز الفرات وجـبال طوروس، وإنما ركَّز جهوده على أوربا. ونتيجة لهذه المواقف السياسية، تطلعت البندقية إلى إمارة آلاق قونيلوا (الخراف البيضاء) وعقدت آمالها على أوزون حسن الذي أبدى استعداداً لمهاجمة العثمانيين، وأثبت

(١) المصدر السابق (ص٢٨٥) وما بعدها.

هذا الأمير التركماني أنَّه يملك قوة عسكرية هائلة، فهو يسيطر على الأناضول الشرقية ويتحرق غيظًا من السلطان العثماني الذي قضى على إمارة طرابزون التي تشدَّه إليها روابط عائلية[١].

ويقول بيلماز أوزتونا[٢]: على كل الأحوال، فإنه لم تظهر على سياسة (التركي الكبير) ـ يقصد الفاتح ـ أية بوادر تشير إلي رغبته في اجتياز الفرات وجبال طوروس، وإنما كان كل أمله في أوربا. وفي ضوء ذلك كله، نجد أن الدولة الوحيدة ذات المقدرة العسكرية التي يمكنها أن تضرب التركي الكبير (محمد الفاتح) من الشرق هي أقويونلو (أصحاب الخراف البيض) الإمارة التركمانية المتضخمة (إيران حاليًا).

ويقول أوزوتونا: كان أوزون حسن بك الذي أظهر في السنوات الأخيرة تقدمًا كبيرًا جدًا، وأثبت قدرة عسكرية هائلة؛ حتى أطلقوا عليه في أوربا (كوجك ترك) ـ التركي الصغير ـ مستعدًا للقيام بهذه المهمة، فهو يسيطر على الأناضول الشرقية ويتميز غيظًا من فاتح (محمد الفاتح) الذي قوَّض إمبراطورية طرابزون (التي يرتبط بها بروابط القرابة)، والذي قضى على قره مان وأخل بالتوازن، ولو أمكن إعطاء الدور الذي لعبه تيمور إلى أوزون حسن، لكسبت أوربا الحرب من الناحية الاستراتيجية، وحتى إن لم يتيسر لها دحر القدرة العثمانية، فإنه سيكون في إمكانها حصرها في حدود المعقول.

استغرق تجهيز الاتفاق ضد الدولة العثمانية وقتًا طويلاً، وتم تدبيره بأناة، وتم التفاهم في النهاية علي خطة التقسيم التي تحصل المجر بموجبها على حصة

---

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» بيلماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٥٥).

(٢) المصدر نفسه (ص١٥٥).

الأسد؛ لتخصيصها أكبر قوة عسكرية، فلها بلاد الصرب، بلغاريا، بوسنة ورومانيا (أفلاق)، ويحصل البنادقة كذلك على حصة كبيرة؛ إذ أنهم وافقوا على تحمل القسم الأكبر من النفقات المالية علاوة على تخصيصهم لأسطول البندقية القوي، وتحصل (الجمهورية المهيبة) على مورا، أتيكا، تيساليا، أبير، ويعاد إحياء الإمبراطورية البيزنطية، علي أن تنحصر حدودها في تراقيا، ولا تعطي حدودًا واسعة لكونها أرثوذكسية، وتكون بمثابة الدولة العازلة.

وبذلك يتم إخراج الأتراك من أوربا بشكل كامل. أما ما هي الأراضي التي ستبقى لدى الدولة العثمانية في الأناضول، فإن ذلك شيء يعود إلى آقويونلو (جوجوك ترك) أوزون حسن الحليف الكبير للاتفاق، ولا شأن للدول الأوربية بذلك، ومن المؤكد أن أوزون حسن سيعيد دولة قره مان وطرابزون تحت حمايته، وسيضم الأراضي العثمانية في الأناضول الوسطى كذلك، وستبقى الدولة العثمانية منحصرة بين البحر الأسود ـ مرمرة ـ إيجه ـ البحر الأبيض، كما كانت في السابق، ولن يسمح باقترابها من الأناضول الوسطى خصوصًا، ويمكنها أن تعيش في غرب الأناضول، شرط تحسين علاقتها مع آقويونلو!!

ويضيف بيلماز أوزتونا في توصيف الموقف فيقول: كان العنصر الأساسي في تطبيق خطة خيالية كهذه، هو إجبار الدولة العثمانية على دخول الحرب بدون حليف (وهذا ما حدث . . لم تتمكن من إتخاذ أي حليف) ومن حيث المنطق، لو أن ما يقرب من ٣٠ دولة قامت بتطبيق هذه الخطة بتصميم، فإن النجاح سوف يكون مضمونًا، وسوف تتعرض الدولة العثمانية للعنت ولمصاعب كثيرة وستتردى اقتصاديًا وعسكريًا كلما طالت الحرب، وستكون مرغمة في النهاية على وقف الحرب، وبالفعل فإن محمد الفاتح لما طالت

الحرب، وضع اليد باسم الجيش على إيرادات الأوقاف غير مبال بعدم الارتياح ولا بالانتقادات الكبيرة التي تعرض لها.

ولكي يتحقق الانتصار في حرب كهذه، فإنه لا يكفي استحواذ الجيش على الأولوية في العالم، ولا يكفي الأسطول الذي أصبح على يد فاتح متفوقًا على الأسطول البندقي، وجهزه بمدافع ممتازة وجعله الأسطول الأول في العالم، ولكن الأمر يحتاج إلى سياسة مكيافيلية وجهنمية دقيقة جدًا، ولقد رضى فاتح بالحرب؛ لأنه كان سوف يتمكن من السيطرة على هذا العنصر كذلك، وقد كان بإمكانه الحيلولة دون وقوع الحرب لو أنه أعطى بوسنة إلى المجر وأعاد استقلال دولتي قره مان وطرابزون وجعلهما دولاً عازلة بينه وبين آقويونلو وفتح البحر الأسود للبنادقة، لكنه لو كان فعل ذلك؛ فهل تقف الترضيات عند هذا الحد؟ وهل يمكن لدولة تقدم مثل هذه الترضيات أن تثبت دعواها في كونها الدولة الأولى في العالم.

تعرضت الدولة الصغيرة دلقادر لضغوط شديدة في حرب العمالقة هذه، ولم يخضع التركمان المرعشيين لهذا الضغط، ولم يتركوا أبدًا تبعيتهم للعثمانية ورفضوا كافة الضغوط التي مارستها الدولتان ذوات القدرات العظيمة كمصر (المماليك) وإيران (آقويونلو ـ أي أصحاب الخراف البيض ـ) بشأن انفصالهم عن العثمانية.

من ناحية أخرى، فإن القاهرة ما كانت لترضى بالتحرك ضد بني عثمان، صحيح أن القاهرة كانت ترى في إجلاس بني عثمان ابنهم المتوسط على عرش قره مان، وفي صاحب عرش مراش التابع المخلص للدولة العثمانية، خطرًا يهددهم في سوريا، ولكن كل ذلك ما كان ليجعلهم يتحركون ضد بني عثمان

الغزاة العظام، وبخاصة عندما تكون هذه الحركة بالاتفاق مع أوربا، لقد كانوا يرون أن ذلك لا يليق بهم[١].

إن (مصر - سوريا) كانت تسر لانتصارات العثمانية في أوربا. في ١٤٥٦ احتلفت مصر وسوريا ٣ أيام بليالهما عند التأكد من عدم صحة خبر موت محمد الفاتح بمرض الطاعون، وقد كانت إشاعة، ولم تكن (مصر - سوريا) مستعدة للإقدام على الحرب مع الدولة العثمانية بسبب مسألة قره مان ودلقادر.

أما آراء محمد الفاتح بالنسبة للدولة المملوكية وسلاطينها، فلم تكن طيبة على أي حال من الأحوال رغم إخفائها بدقة ومهارة، كان السلاطين المماليك بالنسبة لفاتح (عبيداً شركسيين) لا ينحدرون مثله من أوغزخان، وإضافة إلى ذلك فإن هذه الدولة تحتفظ بالخلافة، وتسيطر على ٣ مدن إسلامية مقدسة هي مكة والمدينة والقدس، وبفضل هذه العناصر المعنوية، كانت تدعي بأنها دولة الإسلام العظمى، من الجائز أنها كانت كذلك في وقت ما، لكن تركيا كانت قد وصلت إلى أوربا الوسطى بعد أن قدمت ٤ ملايين من الشهداء خلال ٤ قرون مبتدئة من ملاذكرت ١٠٧١. كان فاتح هو الخلف الشرعي لبني سلجوق (هذا هو الرأي الرسمي للدولة العثمانية منذ بدايتها وحتى اضمحلالها) وبني سلجوق هم أسياد (الأتابكة الزنكيين) الأيوبيين الذي هم أسياد المماليك.

كان العثمانيون قد تقلدوا سيف الإسلام، أما المماليك فكانوا يتمتعون بفضل الإسلام[٢].

---

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» بيلماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٥٦).

(٢) المصدر السابق (ص١٥٧).

وبطبيعة الحال لم تكن القاهرة على علم بمثل هذه الأفكار الخطيرة التي لدى العثمانيين عنهم، واستمرت القاهرة في محبتها للعثمانية حتى النهاية وعلم فاتح (محمد الفاتح) وقد كان يملك أقوى شبكة للاستخبارات في العالم وله عيون وأرصاد في كل منطقة من أوربا، اجراءات الاتفاق الذي رتب ضده، خطوة بخطوة، فسبقهم في التحرك.

بدأ في الحرب فعلاً يوم ٣ نيسان ١٤٦٣م، وبناء على ذلك أعلنت البندقية الحرب على تركية في ٢٨ تموز والمجر في ٣٠ تموز. سحق الوزير الأعظم محمود باشا، المجر في الحرب الميدانية، وتمكن ملك المجر من النجاة بأعجوبة من الموت.

وغادر البابا بيوس الثاني روما (١٨/ ٦/ ١٤٦٤) لقيادة الجيش الصليبي بنفسه، ولكنه مات في الطريق، وتحرك كذلك (دوج) رئيس جمهورية البندقية من البندقية بالسفينة (٢/ ٨ ١٤٦٤ تجاه تركيا، ولكنه رجع إلى البندقية عند سماعه خبر وفاة البابا، وقد منح محمد الفاتح دولة فلورنسا (توسكانا) امتيازات تجارية كبيرة، وحسن أحوالها المالية بشكل واسع، وذلك بغرض إضعاف القدرة المالية والاقتصادية للبندقية.

وبينما كانت تتابع الدول الأوربية، والدول الأسيوية كإيران (أصبح الخرفان البيض) ملكية قبرص (كاثوليكية) في إعلان الحرب على تركية، كان فاتح معينًا بشكل خاص بالبندقية، ذلك أن فاتح لم يكتف بالنسبة للبندقية بالتدابير المتعددة التي اتخذها لتدمير الجمهورية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية، بل إنه قام معها بمناورات سياسية معقدة جدًا، فقد فتح معها الباب لمفاوضات الصلح (وهذا أمر لا يجري والحرب دائرة)، ولكن شروط الصلح المغرية بهرت عيون البنادقة،

فأوقفوا الحرب مدة من الزمن، استطاع فاتح (محمد الفاتح) خلالها القضاء على أعدائه الأخرين، ثم أعلن بعد ذلك أن المفاوضات دخلت في طريق مغلق وبدأت الحرب مع البندقية مجدداً . . لقد ابتلعت البندقية ذات الدبلوماسية الراقية، هذا الطعم مرات عديدة!.

أضعفت الحملات الواسعة النطاق التي بدأت في ١٤٦٩، البندقية بدرجة كبيرة وقد قامت البندقية حتى تموز ١٤٧٩ فقط، بترتيب ١٤ مؤامرة لاغتيال السلطان محمد الفاتح، ولم توفق في أي منها، سار محمد الفاتح في صيف ١٤٧٠ بجيشه في إحدى حملاته الكبرى وهي الحملة الهمايونية ٢١، وحملة آغريبوز تجاه البندقية، وقد كانت هذه الجزيرة ـ وهي أكبر جزر إيجه ـ كأنها ملتصقة بشبه جزيرة آتيكانا (تبلغ مساحتها ٢٩٧ كم٢) بحوزة البنادقة منذ ١٢١٠، ولمدة ٢٦٠ سنة وقبلها كانت بحوزة البيزنط.

دخل الأسطول الهمايوني المكون من ١٠٠ سفينة حربية شراعية كبيرة (كاليون)، و٢٠٠ سفينة نقل إلى بوغاز آغزيبوز في ١٤٧٠، أما الجيش الهمايوني (الإمبراطوري) فقد دخل إلى تيساليا من ترموبيل، وانتقل منها إلى آتيكا وغيرها من الجزر، ووصل إلى إمارة رمضان فحقق بذلك سيطرة تامة على سواحل البحر الأبيض المتوسط وأضحت الشواطئ الإيطالية مفتوحة أمامه[١].

كانت خسارة البندقية بأكرينوز جسيمه، لكنها حاولت استردادها بالقوة، ولما فشلت في ذلك حاولت استردادها بالمال، ولكن السلطان رفض ردها إليها بأي ثمن[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «محمد الفاتح» د/ الرشيدي (ص٣٠٢).

والواقع أن البندقية لم تركن إلي الهدوء بعد الضربة التي تلقتها في الكريبوز، وأجرت مباحثات دبلوماسية مع القوى الأوربية لتشكيل جبهة أخرى ضد العثمانيين، ونسَّقت في الوقت نفسه مع أوزون حسن للقيام بحملة مشتركة وفتح جبهتين معًا، جبهة في الشرق وأُخرى في الغرب.

وفعلاً تمركز أسطول بندقي في عام ١٤٧٣ في ميناء لارنكا وأخذ يقصف القلاع التركية المنتشرة في البحر الأبيض المتوسط، إلا أنه لم يتمكن من إحراز أي نصر، فانسحب من المنطقة.

وتحرك أوزون حسن في الوقت نفسه من قلعة (خربترت) إلى أرزبخان وهو يعلم أن اللقاء سيكون عنيفًا وفاصلاً، وأرسل في غضون ذلك إلى ملك البندقية وإمبراطور ألمانيا وملك المجر يعلمهم بخروجه ويحثهم على الزحف باتجاه الأراضي العثمانية، ولما علم السلطان بتحرك أوزون حسن خرج إلى سيراس للتصدي له، والتقى الجمعان في مرتفعات أوتلق بلي على بعد أربعين كم شمالي شرقي أرزبخان في الثاني عشر من شهر آب، ودارت بينهما موقعة قاسية دامت عدة ساعات، وأسفرت عن انتصار واضح للعثمانيين، واضطر أوزون حسن إلى الفرار[١].

كانت نتائج هذه المعركة هائلة بالنسبة للسلطان محمد الفاتح، فمن نتائجها أن أعاد السلطان محمد الفاتح سيطرته على طرابزون وإمارة القرمان بعد أن سيطر عليهما (أوزون حسن) لفترة، ولكن أوزون لم يفقد في هذه المعركة بلادًا ذات قيمة، وإن كانت هزيمته بعيدة الأثر من الوجهة المعنوية، وقد كتب إلى

(١) انظر: «تاريخ الدولة العثمانية» أوزتونا (جـ١ ـ ص١٦٣-ص١٦٦).

البندقية أنه سيعاود الهجوم، ولكنه شُغِلَ بإخماد الفتنة التي أشعلها ضده كل من ابنه أوغورلي محمد في عام ١٤٧٥م وابن أخيه أويس، كما عانت بلاده من عدو خطر هو المرض، إذ فتك مرض الطاعون بعدد كبير من عساكره فاضمحلت قوته وتلاشت[١].

واكتشف البنادقة أنهم أخطأوا في اعتمادهم على أوزون حسن، واتجه السلطان محمد الفاتح بعد انتصاره على الأمير التركماني نحو الجبهة الغربية، فاجتازت جيوشه نهر الدانوب وأغارت على الأراضي المجرية، وفي الوقت نفسه قام العثمانيون بحملات ناجحة على ممتلكات البندقية في الشمال الغربي خاصة في ألبانيا فهاجموا إشقودرة واستولوا على الفريول الواقع إلى الشمال من الخليج في رأس البحر الأدرياتيكي، وخربوا سهل البندقية والجانب الشرقي لإيطاليا ودخلوا النمسا وفتحو زغرب[٢].

واضطرت البندقية تحت ضغط الأحداث العسكرية التي أرهقتها من جهة ووفاة حليفها السابق أوزون حسن في عام ١٤٧٨م من جهة أخرى، إلى الدخول في مفاوضات مع الدولة العثمانية بشأن الصلح، ووافقت على الشروط العثمانية الصعبة في معاهدة استانبول، وانسحبت من الحرب في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام ١٤٧٩م، وتضمنت شروط الصلح ما يلي:

١ ـ تدفع البندقية غرامة حربية مقدارها مائة ألف دوقا.

٢ ـ تدفع البندقية جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوقا.

---

(١) الرشيدي (ص٣١٦-٣١٧).

(٢) المصدر السابق (ص٣٣٤-ص٣٣٦).

٣ ـ تنسحب البندقية من مدينة كرويا عاصمة إسكندر بك، وتعيد إلى العثمانيين جزيرة ليمنوس وجزءًا من المورة وجميع الأماكن التي استولت عليها منذ بداية الحرب. كما تتخلى عن أرغوس وكامل ألبانيا باستثناء بضع مواقع على الساحل.

٤ ـ يمنح السلطان العثماني البنادقة حرية التجارة في جميع أرجاء الدولة العثمانية، وأن يكون لهم قنصل في استانبول يشرف على شئونهم وينظر في قضاياهم المدنية[١].

وتمكن السلطان من فتح اشقودرة صلحًا في وقت لاحق مقابل بعض الإمتيازات التجارية، وبهذا الصلح تكون الدولة العثمانية قد سيطرت على ألبانيا والمورة. وتحققت إحدى أماني السلطان محمد الفاتح، وهي خلع البنادقة من قواعدهم في البلقان، وقد ذكر بيلماز أوزتونا تقنيات الفاتح في الحرب، فقال: «وقد استعجل محمد الفاتح في حصار اشكودرا، بالونات لا تحترق وصواريخ حرق و(١١) مدفعًا ضخمًا جدًا، وصواريخ طيارة تنفجر في المكان الذي تلمسه أو تمسه»[٢].

ونتبين من هذا الوصف للأسلحة الحديثة المتطورة أن الصناعة العسكرية في عهد السلطان محمد الفاتح كانت متقدمة جدًا، فها هو يستخدم بالونات لا تحترق وصواريخ حريق ـ مثل قنابل النابالم الذي نسمع عنها في عصرنا وبعد ستمائة سنة من عصر محمد الفاتح وصواريخ تحمل متفجرات أيضًا ـ ومن ذلك نتبين مدى التقدم في دولة الفاتح.

---

(١) «البندقية» ديل شارلز (ص ١٤٠).

(٢) «تاريخ الدولة العثمانية» بيلماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٦٨).